



عندما يحاق العتقاء..
بين فكر العرب وفكر الإغريق والرومان
دكتور سيد أحمد علي الناصري

بسم الله الرحمن الرحيم

للعرب تاريخ قديم سالف على ظهور الاسلام، ولأنشأ الشديدي لم ينصف المؤرخون العرب حتى الآن، حتى الذين أرحوا للعرب من العرب أنفسهم، نظروا للعصر السابق على الاسلام نظرة ظالمة، اذ ظوه عصر فوضى وجهالة. فكان العرب قبل الاسلام لم يعرف حضارة، ولم يتنوق ثقافة، ولم يساهم في تراث الإنسانية القديم، وحينما بصورونه وقد جرد من نعمة الفنون والآداب. ويلعبون بعيدا في خياله ناسين تلك الحضارات التي قامت على أطراف الجزيرة العربية، كحضارة البابليين والأشوريين، والآراميين والكنعانيين، والمعنيين والسبيين، والمصريين، ناهيك عن حضارة الأنباط، والتدمريين، واللخمين، والفاسية، هذه الأمم قدمت للإنسانية غير ماعندها من تراث فكري وفني، عب العرب منها حتى النجالة فكيف بنعمة الله يمجحون؟..

لقد كان للعرب قبل الاسلام حضارات أنجبت ثقافات، وفي الثقافات آراء ونظريات، ولو لم يكن العرب على قدر كبير من الوعي الثقافي ما فهموا عظمة الرسالة والرسول، ولما استطاعوا فهم القرآن والحديث، والاقتناع بفلسفة الاسلام والالمان بها، والاستشهاد في سبلها.

أن معاول الأثرين في العصر الحديث، قد أماطت النثار عن ماضي العرب التليد، المدفون تحت الرمال، الصامته صمت الأبدية، وروى الأثرين للعالم كيف قامت في بلاد التيهين حضارة عظيمة، أهدت الى الإنسانية أعظم وأقدم فقهاء القانون وهو حمورابي، وقدمت للإنسانية مختلف الفنون والآداب، وغير البابليين والأشوريين نجد الآراميين والكنعانيين والأوحيين، كما أن الدور الذي لعبه الفينيقيون في اعداء الإنسانية طريفة الكناية بالخراف، يحتاج الى بحث قائم بذاته. وفي جنوب الجزيرة العربية قاقت عدة ديولات غنية ومتحضرة، مثل سبأ ومعين، وقتبان، وحضرموت، وحجر، وقد لعبت هذه الدول قدما دورا هاما في تجارة العالم القديم، وخاصة بين الدول المطلة على المحيط الهندي والواقعة على البحر المتوسط، وقد اضطرها هذا الدور الى السيطرة على البحر الأحمر والخليج العربي، ورا على طريق القوافل الممتد بين جنوب الجزيرة وشمالها. (١) وستعرض اليوم لموضوع ساهم فيه العرب بالفكر، ونقلته الحضارات عنهم، وهو اسطورة طائر العنقاء،

رمز الموضوع الذي يعكس ماخوذه صحرائهم الشاسعة من أسرار وصمت كصمت الأبدية.

وليعرف العالم موضوعا شغل خيال العديد من شعوبه، مثل موضوع العنقاء، ذلك الطائر الخرافي الذي تناوله كل شعب بالخيال والتعير، وبطريقة يمكن أن تساعدنا في التعرف على نفسيات هذه الشعوب وعقليتها المتميزة، أنها فرصة للدارسين ليجعلوا موضوعا خياليا واحدا تناوله شعوب مختلفة العنصر والفكر والحضارة، يفصل بينها الزمان والمكان.

كان قدماء المصريين أول من لفتوا الأنظار إلى طائر العنقاء، وصوره على آثارهم، وعرفت العنقاء عند المصريين باسم بنو *Ben*، ويرجح البعض أن هذا الاسم مشتق من الفعل المصري القديم «وين»، أى يشرق أو يريق أو يتوهج، فيكون معنى العنقاء في اللغة المصرية القديمة البراق أو الوهاج. ومن هنا جاءت الصلة بين اسم الطائر، وبين الحجر، هرمى الشكل، والمسمى باسم بن بن، والذي رمز المصريون به إلى التل العتيق الذي تفجر منه الماء الأزلى، أى الأرض حين طفت على وجه الماء، «فإذا بهذا الطائر يتلأأ من فوقها، فيبدأ الكون نوره، ويخرج صوته مدهوا، فيكون أول صوت دوى في الوجود» وهذا كل ما تقدمه لنا المصادر المصرية عن العنقاء. بالرغم من أن الأسطورة كانت شائعة ومعروفة خاصة عند كهنة معبد الشمس في هليوبوليس (المطرية شمال شرق القاهرة). (٢١)

وإذا كانت أسطورة العنقاء قد شاعت في مصر القديمة، فلا بد أنها قد شاعت في فلسطين أيضا، خاصة عند العبرانيين القدماء، الذين تأثروا كثيرا بالفكر المصري، ولهذا يميل فريق من دارسي نصوص التوراة إلى الاعتقاد بأن مؤلف «أناشيد أيوب» كان على دراية بقصة العنقاء. فقد ورد في الفقرة الثامنة عشرة من الأنشودة التاسعة والعشرين اسم العنقاء تحت إسم «السمندل» إذ تقول الأنشودة «فقلت إني في وكري أسلم الروح، وكالسمندل أكثر أياما» (٢٢). ويقول المفسرون لنصوص أناشيد أيوب، أن المقصود بالسمندل هو العنقاء، لأن كلمة وكري أو عش وردت مع ذكر اسم السمندل، فالأساطير التي دارت حول العنقاء تناولت الحديث عن العش الخرافي، الذي كان طائر العنقاء يبنى لنفسه من أغصان أشجار الطيب والعطر التي ينتقيا بحرص وعناية. ويقولون أن أيوب كان قد سئم طول العمر حتى أصبح كالعنقاء التي يعيش عمرا مدينا. ويؤكد ذلك المثل الذي كان يجري على لسان الأغنياء، «فيقولون فلان تجاوز العنقاء عمرا» (٢٣).

ومهما يكن من أمر، فإن لفظ العقاء الذي ورد في النص العربي هو «حول» أو «حول» وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون القدماء على شمال أي الحول (د) الرابض عند أحرام الجزيرة. ولعل العربيين ظنوا أن أي الحول هو طائر العقاء، وكان الآراميون والفينيقيون القدماء الذين سكنوا مصر، وتجمعوا في جاليات كبيرة في مدينة ممفيس مهوونين بأي الحول، فهم أول من عبثوه. ربما لأنه كان شبيها بالعقواء، التي ارتبط إسمها ببلاد العرب، الموطن الأساسي لهؤلاء المهاجرين. وبالرغم من ذلك، فإن المترجم العربي لذلك الجزء من أناشيد أيوب، تجنب ذكر لفظ العقاء، مفضلاً عليه اسم السمندل، وهو إحدى المرادفات التي اعطاها العرب لظائر العقاء.

أما الأغريق، وهم الذين يرجع لهم الفضل في نقل أسطورة العقاء من الشرق إلى الغرب، بعد أن صاغوها في قالب هليلي، ونقلوها إلى سائر الشعوب الهندو أوروبية، فقد ترجموا العقاء إلى فينكس التي تعني بالأغريقية الألوان الزاهية، نظراً لما عرف عن ريش هذا الطائر الجميل من لون ريشه، وهو لفظ يكاد أن يكون ترجمة للأسم المصري ينو الذي يعنى الوناج. كذلك فإن لفظ فينكس Phoenix يعنى بالأغريقية شجرة النخيل. ويفسر البعض ذلك بأن بلاد العرب مليئة بأشجار النخيل التي كانت العقاء تبنى عشها فوق أكاشمها.

أما الرومان فقد تقبلوا اللفظ والمفكرة كما جاءت عند الأغريق، ولم يضيفوا عليها شيئاً، وكل ما فعلوه هو أنهم نقلوا حروف الاسم من الأغريقية إلى الحروف اللاتينية، وهي الصيغة التي انتقلت إلى معظم اللغات الأوروبية المعاصرة، خاصة تلك التي تولدت عن اللاتينية.

أما العرب فقد لقبوا هذا الطائر حيناً بالعقواء، وحيناً بالسمندل (٢٦)، لكن اسم العقواء هو الأكثر شيوعاً، وقيل أنها سميت عقواء لأنه كان في عنقها بياض كالطوق، أو ربما لأن لها عنق طويل (٢٧) كعنق البعور (٢٨)، وفي عصور ما بعد الإسلام خلط العرب ما بين اسم السامند، أو السلامندر، أو السمندل، وكلها مرادفات لخيلان النار.

لقد تردد اسم العقواء في عدة لغات من لغات الهند، ولغات الصين وغيرهم من شعوب الشرق الأقصى (٢٩) ونجىء القرس بعد العرب في اهتمامهم بأمر العقواء، إذ عرفوها باسم السيمورغ Simurg وهو لفظ مركب من كلمتين «سي» وهو اسم طائر كبير لعله

النسر وموزغ أى الطائر، كما لقبه العرب باسم «الشاه مرقان» أى ملك الطيور «لأنه يقبل كالسحابة الزائفة لعظم جسمها وحفيف أجنحتها» (١٠).

أما الخيال الشعبي العرب الأبرأ في عصور السلاجقة والمماليك فقد شبهوا العقاء بالرخ أو الرخه، وهو أيضا طائر خرافى ترد ذكره في أقاصيص الف ليلة وليلة. وربما كانت فكرة الرخ أو الرخه قد أحدثت وطورت من الرواية التي رواها هيرودوت عن العرب وكيف كانوا يجمعون نبات القرفة. فيقول هيرودوت أن العرب يقولون المكان الذي يجمعون منه القرفة سرا مغلقا عليهم، أما كيف يجمعونها فينقل هيرودوت ماسمعه من كهنة مصر من أن طيوراً خشمة الحجم هي التي تجمع لحاء أشجار القرفة من أماكن بعيدة وتنقله لتسنى بها عشاشها في أماكن عالية جدا لا يقدر أحد على الوصول إليها. ثم تخلط هذه الطيور أغصان ولحاء أشجار القرفة بالطين في وجه صخرة ملساء لا تستطيع قدم إنسان أن تسير عليها، ولكن يحصل العرب على أغصان ولحاء القرفة من العش، ابتكروا حيلة مأكرة، وهي أنهم يجمعون الحيوانات التي تنفق من الدواب والثيران، ثم يقطعونها إربا إربا. لكن يجمع كثير، ثم ينقلونها إلى المناطق التي تقع بها عشاش هذه الطيور. ويتركونها بالقرب منها ثم يختبئون عن كتب، فتأتى هذه الطيور خاصة المعجوزة منها، وتخط على قطع اللحم الكبير، وتقبض عليها بين مخالبها، وتطير بها إلى عشاشها العالية. ولأن قطع اللحم كبيرة جدا فإن الأعشاش لا تتحمل ثقلها فتسقط على الأرض، عندئذ يخرج العرب من مخابثهم ويجمعون ماعلق بها من لحاء القرفة، ثم ينقل بعد ذلك من بلاد العرب إلى سائر الأقطار (١١). ولعل هيرودوت كان يتكبر حين روى هذه الأقصوصة عن الطريقة التي كان بها العرب القدماء يجمعون لحاء القرفة في أساطير العرب القديمة عن العش الذي كان يئيه طائر العقاء من أشجار الطيوب والعطور والتوابل ذات الرائحة العطرية، ولعل هيرودوت سمع بكل تلك الأساطير والروايات من البحارة الفينيقيين الذين التقى بهم في بلاد الشام خلال رحلته إلى مصر، أو من كهنة معبد الشمس في مدينة هليوبوليس المصري الذين حاورهم وحاوروه.

وجدير بالذكر أن اسم الرخ أو الرخه انتقل من الشرق إلى الخيال الأوروبي الشعبي عن طريق الرحالة ماركو بولو. فهو أول من أدخل كلمة الرخه *Roers* إلى قاموس اللغات الأوروبية الحديثة.

هكذا يتبين أن أسطورة العقاء قد شغلت خيال العديد من الشعوب القديمة سواء في

الشرق أو الغرب، وثبتين كانوا أم موحدتين. ومن ثم جاءت الأسطورة التي ابتدعها العرب أصلاً، تناسخاً لفكر الشرق والغرب. وهذا مثال على مساهمة العرب في تراث الأساطير القديمة.

وتتفق هذه الأساطير في جوهر واحد، بالرغم من أن كل شعب اختلف في التفاصيل، أما الاتفاق فهو أن العنقاء طائر غريب المظهر والمولد، يأتي طائراً من مكان مجهول في قلب الجزيرة العربية (١٣)، عندما تكتمل دورة الدهر، أي دورة زمنية معينة، اختلف الروائيون في تقديرها وفي احتسابها، فهناك من قال أن ظهور العنقاء يحيى كل خمسين عاماً، وهناك من قال أن العنقاء يظهر طائراً في السماء عندما تم الشمس دورتها كما تحلها المصريون القدماء، والتي كانوا يسمونها بنورة سوتيس *Sotis* ويقادرونها بحوالى ١٤٦٠ سنة (١٤)، ولقد اختار المصريون هذا الرقم لظهور العنقاء لسبب وجيه. وهو أن المصريين كانوا قد قسموا السنة إلى اثني عشرة شهراً، ثم قسموا الشهر إلى ثلاثين يوماً، ثم أضافوا خمسة أيام أعياد في نهاية السنة أي أن السنة المصرية القديمة كانت ٣٦٥ يوماً، وكانت السنة المصرية تبدأ من الناحية النظرية بمشرق الشمس مع ظهور كوكب الزهرة، (الشعري الجمالي عند العرب لأنها تنجبه في حط وربع مثل الشعرة تجاه اليمن). وكان المصريون القدماء يسمون كوكب الزهرة باسم سويد (١٥)، والمعروف أن السنة الفلكية الحقيقية هي التي تكمل فيها الأرض دورتها حول الشمس تبلغ ٣٦٥ ١/٤ يوماً، وقد احدثت اليوم فرقا شاسعاً بمرور الزمن، أي تقدم السنة عندهم يوماً كاملاً كل سنة، وشهراً كاملاً كل ١٢٠ يوماً، وقد اشتكى مصري في وثيقة ترجع إلى عصر الرعامسة (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) بأن الشتاء يحيى في الصيف، والشهور تتعكس والساعات تضطرب... الخ. ونحن طبعاً الحسب نجد أن المصريين أدركوا أن السنة الفلكية تتلازم مع السنة التقويمية كل ١٤٦٠ عاماً، ومن ثم حددوا ظهور العنقاء في بلاد العرب عند هذا التلازم أي كل ١٤٦٠ سنة.

ولقد زار المؤرخ الأغريقي هيرودوت مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ضمن رحلة لتقصي الحقائق في ولايات الإمبراطورية الفارسية وزار معبد الشمس الكبير في هليوبوليس. وشاهد ربما طائر العنقاء داخل هذا المعبد. فسأل الكهنة عنه فرووا له قصته التي نقلها إلى شعبه الأغريقي، والتي نقلها بدورها إلى قراء العربية. مترجمين حرفاً حرفاً فيقول هيرودوت بالحرف الواحد في معرض حديثه عن الطيور في مصر:

وهناك طائر مقدس يسمونه بالفينكس *Phoenix* لم أرىه إلا مصوراً إذ أنه لا يزور البلاد

الأ فيما ندر، يزورها كل ٥٠٠ عام على حد قول أهل هليوبوليس «هنا يخلط الأمر على هرودوت فيخلط بين روايتين مختلفتين» وذلك عندما يموت أبوه، وإذا كان الرسم طبق الأصل فهكذا يكون حجمه وشكله: بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه الآخر أحمر، وهو قريب الشبه جدا من السر في هيئته وحجمه، ويقولون أنه يقوم بما يلي تمهارة تامّة، ولكن لا أصدق مايقولون، يقولون أنه يغادر طائرا بلاد العرب حاملا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه في هذا المعبد، وذلك بعد أن يغطيه بقطعه من المر، ولكن ينقله يقوم بما يلي: يصنع أولا من المربضة بالقدر الذي يستطيع حمله، ثم يجرب حملها حتى إذا ما انتهى من محاولته، يجوف البيضة ويضع أباه بداخلها، وبعد ذلك يلبس بالمر على المكان الذي جوفه من البيضة ويدخل فيه أباه، بحيث يظل ثقل البيضة واحدا، وبعد أن يلبس على أبيه بعملة طائرا إلى معبد الشمس في مصر ذلك مايفعله هذا الطائر حسب مايدعون» (١٤).

لقد مر هرودوت مورا سريعا على أسطورة العنقاء بعد أن أسقط الكثير من تفاصيلها لأن الرواية لم تعجبه، ولم يقبلها عقله الأخف، فلم يذكر بالتفصيل الطريقة التي يموت بها العنقاء إذ كانت الروايات الشعبية تقول أن العنقاء عندما يحس بدنو أجله يجمع أعشاشها من طيب النبات، ثم يرقده عليها، ويشعل فيها النار، وتشب البخور في أعشاب العنق العنق الزكية الرائحة، والطائر راقد لايتحرك، حتى تأل النار عليه تماما مع أعشاب العنق، وما تكاد النار تحب حتى يتخلق من رماد العنق ورفات العنقاء طائر عنقاء صغير، سرعان مايسمو بسرعة مذهلة، ويتحول إلى عنقاء كبيرة، يجمع رفات أبيه، ويكون منها بيضة كبيرة يحملها بين غفاليه ويظهر من بلاد العرب قاصدا مصر، حيث معبد رب الشمس الكبير في هليوبوليس، وهناك يترك رفات أبيه، عندئذ يقوم كهنة المعبد بأطلاق البخور وترتفع عقودهم بالصلوات، ثم يقومون بطقوس جنازته، ويؤدون شعائر الدفن ويأرونه التراب.

وهناك رواية أخرى تقول أن العنقاء الكهل يظهر من بلاد العرب إلى مصر حيث يقضى نحبه فيها، ومن رفاقه يتخلق طائر جديد يظهر عائدا إلى بلاد العرب.

وختلاصة القول أن العنقاء أسطورة عربية. وأن طائر العنقاء كان مقدسا عند المصريين ومقربا من رب الشمس عندهم، ولذا أعطى طائر العنقاء تقدسا وتجيلا خاصا تماما مثل القداسة التي كان بها المصريون القدماء يعطونها لشبه الجزيرة العربية باعتبارها الأرض المقدسة التي ينبت فيها اللبان والمر والبخور التي كانت تحرق في معابدهم، عند تقديم طقوس الشعائر لآلهتهم. كما تشهد بذلك النقوش الهيروغليفية.

وقد تناول أسطورة العنقاء كاتب مصري آخر عاش في القرن الرابع الميلادي واسمه حور أبولون، ألف كتابا حتى «رموز الحروف الهيروغليفية» (HIEROGLYPHICA) يقول فيه:

«وعندما يهبطون إلى مصرين» أن يرموزا إلى نفس عمريت طويلا، أو إلى فيضان فأنهم يرمزون طائر العنقاء، وهم يرمزون برحمة إلى النفس المعنوية لأنه أطول المخلوقات عمرا في الوجود، ويرمزون به إلى الفيضان لأن العنقاء هو رمز الشمس، التي لا يفوقها شيء في الوجود حجما. وفي الفصل الثالث من نفس الكتاب يستطرد المؤلف المصري فيقول «ولكن يرمز إلى رجل عاد إلى وطنه بعد غيبة طويلة في بلاد غير بلاده، فأنهم يرمزون طائر العنقاء لأن العنقاء عندما يأتية أجله بعد خمسمائة عام، يعود إلى مصر على الفور، وبعد أن يؤدي للعنقاء ما لها «أي يموت»، يلقى من جانب الكهنة شعائر جنازية سريعة، ومايؤدية المصريون لسائر الحيوانات (المقدسة) يؤدونه للعنقاء، إذ يقول عنه المصريون أنه أكثر ثوقا للشمس من أي طائر آخر، والنيل يفيض لهم بفعل حرارة هذا الرب (الشمس) وقد قصصنا أمر ذلك منذ وهلة» (٣١).

كما يتعرض الكاتب المصري في مناسبة ثالثة للعنقاء في الفكر المصري فيقول «وعندما يهبطون أن يرموزا إلى دوران الدهر، فأنهم يرمزون طائر العنقاء وذلك لأن ولادته تسمى نتيجة إكمال دورة الدهر، وهو يولد على النحو التالي:

«وعندما يحس طائر العنقاء بدنو أجله، يلقى بنفسه على الأرض بقوة، فتحدث في جسده فتحة نتيجة لهذا السقوط، ومن دمه (الأخضر) (ICHOR) الذي يتدفق من جراحه، يتخلق طائر آخر، وما أن ينبت للتصغير جناحا، حتى يلقظ أبوه أنفاسه الأخيرة عند مطلع الشمس. وبعد موت أبيه يقفل الابن عائدا إلى وطنه الأصل، بينما يتولى الكهنة المصريون دفن العنقاء الراحل» (٣٢).

نلاحظ اختلاف رواية المؤلف حور أبو لليون عن الرواية التي نقلها لنا هيرودوت وعن باقي الروايات الشعبية عن طائر العنقاء، خاصة فيما يتعلق بالطريقة التي يموت بها العنقاء المجوز. وهل كان يطير إلى معبد الشمس في مصر حيا أم محمولا داخل بطيه من الممر العري يحملها إليه العنقاء الجديد، وذلك أمر طبيعي بالنسبة لأسطورة خرافية أصبحت مجالا خصبا للخيال الأبساى من كل جنس وعصر وثقافة، فضلا عن اختلاف اهتمامات الباحثين، فالشاعر غير الفيلسوف، مؤرخ غير الأديب، كما أن فروق الزمن الذي كتب فيه الأدباء أظهرت اختلاف النظرة إلى الأسطورة.

إذا فليس من الغريب أو المستغرب أن تستوى أسطورة العقاء خيال الشعراء والأدباء وفلاسفة من الشرق والغرب، ويتناولونها كل حسب وجهة نظره ومن زاوية أفكاره، ومن أجل القصد الخاص الذي يبغيه، فمثلاً ذكر شاعر الأعريق القديم هسيودوس HESIODUS (١٨) «وأن العقاء تعيش عمر الغراب تسع مرات» كما أن الأعريق أخذوا اسم فينكس PHOENIX أى العقاء اسم علم لبعض أبطال أساطيرهم.

وإذا ما تركنا الأعريق واتجهنا إلى أساطير الفكر الرومانى، نجد أن شعراء العهد الأوغسطى يتناولون أسطورة العقاء ولعل الأسطورة وصلت إلى الرومان نتيجة لفتح الشرق الأعريقى، وتدفق الأدباء والشعراء من الشرق الأعريقى إلى الغرب اللاتينى. ومن أشهر شعراء العصر الأوغسطى الذين تناولوا هذه الأسطورة، الشاعر الرقيق العاطفى أوفيدوس، إذ تناول الأسطورة من زاوية رومانسية، ونظم أيتها رقيقة عن العقاء فى ديوانة: مسخ الكائنات METAMORPHOSES (١٩)، وفى فن العشق AMORES (٢٠)، أما الفيلسوف الأديب سينيوس سيلفيوس فقد تناول فكرة الخلود الأزل فى أسطورة العقاء الذى لا يؤثر فيه الزمن (٢١)، أما الفيلسوف الروائى والمسرحى الشهير سينيكا (٢٢)، فقد وجد فى أسطورة العقاء ضالته المشوذة كمثل جسم تعاليم الفلسفة الروائية التى تنادى بالالتزام بنظام معين، لا يمكن الخروج عليه. وعن العقاء كتب بلينيوس الأكبر فى مؤلفه عن التاريخ الطبيعى HISTORIA NATURALIS (٢٣)، فتناول أنواع الأعشاب الغريبة التى تنمو على روائى وفى سهول الجزيرة العربية والتى ينتقها العقاء لينسج منها عشه الخراف، خاصة ما كان منها ذو رائحة وعبير طيب يعق الجو، وينشر شذاه، كما تناول بلينيوس عادات العقاء وسلوكه وطباعه، وكيف يتخلق الطائر الجديد من الطائر المتوفى، وشرح كيف يخرج الحى من الميت، والميت من الحى. أما شيخ المؤرخين الرومان تاسيتوس (٢٤)، فسجل لنا كيف بقيت الأسطورة حية فى وجدان العالم خاصة فى الأوقات التى يحتاج فيها إلى خداع النفس من أجل تثير الآمال وأضغاث الأحلام. فذكر أن شائعة عمت العالم عام ٣٤ ميلادية فى أواخر حكم الأمبراطور العجوز نيبوس بأن العقاء شوهدت تطير فى الشرق وفى سماء مصر - معطاة نهاية دهر وبداية دهر جديد، وشاقلت الألسن أن العقاء الجديد جاء من بلاد العرب حاملاً جثة أبيه، ووضعها فى معبد الشمس فى مصر، ثم طار عائداً من حيث أتى.

وفى نهاية العصر الوثنى ومطلع العصر المسيحى لطالعت قصيدة الشاعر لكتانيوس (٢٥)، التى كرسها بأكملها لطائر العقاء، وقد أهتم كتاب وفلاسفة الرومان المسيحيون

بأسطورة العقاء بعد اندثار الوثنية، كما تناولها كتاب آخرون نذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ أونيليوس فكتور (١٦).

وبالرغم من انتصار المسيحية على الوثنية في أوروبا في القرن الرابع الميلادي إلا أن شعراء الرومان المسيحيين وقفوا مبهورين أمام أسطورة العقاء، فالوصف المستفيض لجمال العنق الأخصر المنقش من شجر الكافور والمسك والرياح والطيب، ومن الزهور ذات الشذى كالأقحوان والياسمين، والذي كان العقاء ينبه فوق أكمام الخيل الباسقات ذات الطلع النضيد، كان يذكر المثقفين بجنات عدن التي وعد الله بها عباده المخلصين. أضف إلى ذلك أن رهبان الأديرة النائية والمتعبدية والنساك في عزلاتهم بعيدا في الصحراء والجبال وجدوا في قصة العقاء هوى وتعاطفا لأنه طائر يقضي عمره وحيدا بلا قرينة، ولا والد ولا ولد.

ولقد رأيت أن أنقل لقارئ العربية لأول مرة الجزء الأخير لأشهر قصيدة عن طائر العقاء كتبها روماني اسمه لانتانتوس LACTANTIUS (١٧) وكان لانتانتوس استادا للخطابه والبلاغة في ليوميدية - إحدى مقاطعات آسيا الصغرى، وذلك في القرن الرابع بعد الميلاد، ثم استهواه الدين المسيحي فتحول إليه، وأصبح من فقهاءه، ومن ثم دعاه الأباطور قسطنطين ليشرف على تعليم ولي العهد الأمير كريسوس CRISPUS. لقد نعتى هذا الناسك في هذه القصيدة التي سماها عن طائر العقاء DE AVE PHOENICE بجمال العقاء، وبسره الأمل المبارك، بنعمة حارة وصادقة، فجاءت كصلابة متعبد متسك، ولكنها بالرغم من هذا تعمل في حشاياها عمق الثقافة اليونانية الرومانية. وحموها والنسائيتها، فجاءت مزيجا رائعا من العمق الثقافي، ومن الدراما العاطفية، والزهد والتجرد عن متاع الدنيا وهو مباشر به المسيح عيسى بن مريم.

نقول القصيدة :

Magnitiem terris Arabum quae gignitur ules vix aequare (145)
potest, seu fera seu sit avis, Non tamen est tarda ut
volucres quae corpore magno incessus pigrae per grave
pondus habent, Sed Levis ac velox, regali plena decore:

talís in adseductu se tenet urque hominum Huc venit (150)

Aegyptus tant ad miracula visus et raram voluerem
turba salutat ovans

Protinus exsculpunt sacrate in marmore Formam
et titulo signat verumque diemque novo

Contrahit in coctum sese genas omne valantum (155)
nec proedae memor est ulla nec ulla metus

Altum stipata choro velat ille dei altum tarda-
que prosequitur munere laeta pio

Sed postquam pari pervenit ad aetherauras, mox (160)
edit, illa suis conditur inde locus

A Fortunatae sortis finisque voluerem Cui de se
nasci praestit ipse deus

Femina vel mas haec, sed neutrum se a sit atreumque
felix quae veneris foedra nulla colit

Mors illi, verus est Sola est in morte voluptas ut (165)
possit nasci appetit ante mori

Ipsa sibi proles, vias pater et suus heres, natrix
ipsa sui semper alumna sibi.

Ipsa quidem sed non eadem quia et ipsa nec ipsa (170)
est aeternam vitam mortis adepta bono

الترجمة

(١٤٥) ان ضحامة ذلك الطائر، الذي يأتي من بلاد العرب، لا يمكن أن يلد
بأنى مخلوق آخر، حيوانا كان • طيرا. وهو على الرغم من ذلك، لديه
متريلا، مثل الطيور، دنت الأجزاء الضخمة، بسبب ثقل وزنها،

بل لا حديد، بل نكهة مصدرة من

(١٥٠)

ويعني بهي، خرج مصر عن مكة إليها، سلك معجزة، وبكى على
مجاهدين، دلت على ربه، وعلى ربه، وعلى ربه، وعلى ربه، وعلى ربه،
المقدس ربه، وسلكون الحديث، والنار، يعنون جليله.

(١٥٥)

وسمى حبه صبور، من كل حبه، ولا حبه، من حبه، من حبه،
ثم سمي حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،

(١٦٠)

من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،

(١٦٥)

من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،

من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،

من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،
من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه، من حبه،

نسمع عن أنه أنصهر منيه حوى موند عتده : مونا، كى لى عرب من شعوب
 حاده سى كات لا تمل و صبع لى شعور، كى أنه كاتو شع شعور فى صبع
 عرب، و لى عتده عرب بعضى سحره عن صديق قنلا لى حطب عرب عن
 شىء لى عتده لى حطب به فى حوى عتده، عرب : ١٠

ويعون من شعور فى سار عرب، و عتده، حاتر صحنه سى بالعقاد، و عى
 عتده، عرب كمنه لا تمل عى، عتده حاتر عتده لى لى عتده لى كثر دعت
 حتى حوى الداهية عتده مغربا و مربة كقولهم :

ولا سيمان حيفه حطب به من به حجاج عتده، عرب : ١١

و عى أنه شىء عتده لأنه كان فى عتده سحر كاهول، و عى كثر عتده عتده
 برعمون حاتر كاتو عتده عرب الشمس، و عى ربح عتده عرب حاتر به عتده
 و عى لى عتده و عى عتده عرب، حاتر به عتده، عرب، و عى عتده

عند شعور عرب سيمون، فقد ذكر عتده فى عتده، عى أنه حاتر حوى،
 كقول أنى نواس فى هجاء أحد الناس :

و عى لا كمنشاء عرب شعور فى سحر سوت و عى شىء : ١٢

كى صوره عى أنه حاتر صحنه، لا يفتى عى صحنه أحد، كقول فى حلا، فى صبع
 نصيحه سقط الزند :

للى عتده بكر لى عتده عتده من صحنه عى عتده

و بأنه حاتر عتده، لا يلد ولا يوضع كقولهم :

عتده عتده، و عى عتده رب عتده، بكر عتده عتده : ١٣

و عى عتده، لى حوى عتده و عى عتده لى حوى عتده عتده : ١٤

كذلك بروى القزويني (١٠٣) في كتابه عجائب المخلوقات بأن العنقاء أعظم الطير جنة وأكبرها، تطفئ الليل كما تطفئ الحداة الدجاج، كما ذكر أيضا أنها تلقت الى بعض جزائر المحيط تحت خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل اليها أحد من الناس وفيها تعيش حيوانات كثيرة كلها تحت طاعة العنقاء، وذكر أيضا أن العنقاء كانت تترك ما يجنى من صيدها لباقي الحيوانات، حيث يشاهدها من موضعه العال وهي تأكل بقاياها، وروى أيضا أن العنقاء عند طيرانه يحدث ريشه صوتا كه صوت هجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح.

بانتقال الحضارة الإسلامية الى إيران أصبحت العنقاء شرقية، ولم تعد شرقية عربية كما كانت قبل تفاعل الحضارة الإسلامية مع الحضارة الساسانية إذ أتته الإيرانيون بها الى الهند والصين، لكن الذي لا شك فيه أن الأسطورة العربية وصلت الى الهند شرقا، فقد ورد اسمها في عدد من لغاتها القديمة، ومهما روى اليهود عن العنقاء ومهما ذهب خيال الرسامون الصينيون في عصر أسرة يانغ تسن قلن تصل رواياتهم لهذا من الخيال ما بلغته الروايات الإيرانية الإسلامية.

لقد اسم الإسلام في إيران بنزعة التصوف العميق، ولهذا أصبحت العنقاء مادة غنية للفلاسفة المتصوفين، وعالجها بعضهم بشكل رمزي، فحينما ترمز للنخبر فهي مخلوق عبقري طيب أمين (وهنا نجد بقايا الفكر الوثني الأيراني الذي يرمز للنخبر في شكل الرب (أهورا مزدا) وحينما ينظر اليها البعض على أنها رمز للشر والظلام والأفك فهي حيوان شرير داعية (وهنا أيضا لذكر القاري، برب الظلام والظلم الأيراني أهرمن) لا يخلص البشرية من آتمة سوى بطل خير. ومنفذ للأنسانية (١٠٤)، وهنا أعود فأذكر القاري، بأسطورة انتصار أهورا مزدا على الشرير أهرمن) وسواء اتفق معنى الباحثون أم اختلفوا، فأنسى لا أجد فرقا كبيرا بين مارواه الإيرانيون ومارواه المفسرون والكتاب العرب في العصور الإسلامية. ويقال ان أعيار العنقاء في الكتب والمخطوطات العربية مستوحاة كلها من فارس الإيرانية وأنحنى أن أتبع مقالتي هذه بمقال عن العنقاء في الفن الإسلامي.

ومن أشهر الشعراء المسلمين المتصوفين، الذين عالجوا أسطورة العنقاء من زاوية صوفية بحثه الشاعر الأيراني فيهد الدين العطار (١١٤٦ - ١٢٦٠م) وهو واحد من أكثر ثلاثة شعراء متصوفة في تاريخ الأدب الأيراني بعد الإسلام (١٠٥)، وقد تناول فيهد الدين فكرة سبق للأمم

الغزالي أن عاجلها في بحث أسماء رسالة الطير، وهي أن الطيور على اختلاف أشكالها
لتجتمع لتبحث عن ملكها، وتجمع على إختيار العنقاء، متولجج وفرد الطير لتبحث عنها
في رحلة كلها مهالك، وينجح أخيراً عدد قليل في الوصول إلى حضرة العنقاء، ويروون
للطائر الضخم الصوت التي تكبدها في سبيل الوصول إليه لكي يباهوه ملكاً راجين
أن يقلل قرار الطير ويتولى عرشهم، فيحققه العنقاء ضاحكا وساخرًا منهم، ويقول لهم أنه
ملك الطيور قبل أن يضعوا هذا القرار، وبعد أن وضعوا هذا القرار وسواء شاءت الطيور
لم آتت، وبهكم عليهم لأنهم اتبعوا أنفسهم لعمل شيء قائم فعلاً. ويستطرد فريد الدين
الغزالي فيقول أن ال طيور ندمت أشد الندم على ما ضيعته من جهد ومجتهل من نفسها
حتى نمت الموت والعناء، وعادت رحلة الندم، ولم تسرح إذ لم يكن يسمح للطير بالأقامة
أو التواجد حول العنقاء (١٦).

مراجع البحث

- ١- انظر، ديتلف نيلسون وفرتز هومل وآخرون: التاريخ العربي القديم، ترجمة
واستكمال د. فؤاد حسين على، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م، العرب قبل
الاسلام للدكتور فؤاد حسين على، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
- ٢- انظر، د. احمد بدوي ومحمد صقر خفاجة: هيرودوت في مصر - دار القلم،
القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ص ١٧٨.
3. Then I said «I shall die in my nest, and as the Phoenix I shall multiply my days».
Cambridge Bible, Job, with notes, introduction and Appendix, by the Revered.
A.B. Davidson, Cambridge University Press, 1899, Comment on song No. XXIV,
18, P. 205.
4. Phoinikos etc Bloun.
Luc, Herm. 53, H. Liddell R. Scott. A Greek-English Lexicon, Oxford, The
Clarendon Press, col. 1948 sub.
5. Dr. Sayed Tawfik, The Etymology of the Arabic Name for the Giza Sphinx, un
published Paper.
- ٦- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الجزء الثاني، ص ٤٠.
- ٧- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني عشر (فصل العين حرف القاف).
- ٨- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٧٦.

٩- ناجي القيسي : قريد الدين العطار وكتابه منطق الطير (رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه، من كلية أداب القاهرة، ١٩٦٥م، غير منشورة، ص ٣١٧ - ٣١٨.

١٠- ناجي القيسي - المصدر السابق، ص ٣١٨ .

11. Herodotus, History, Book III, 111, 112.

12. W.H. Roscher, Aus Furbliches Lexicon der griechischer und Romischen Mythologie, 1902-1909, III, 2, col. 3450-3472.

13. Pauly-Wissowa, Kroll: Real Encyclopedie, sub Sothis. J. Gwyn Griffith, The Origin of Osiris, (Berlin 1966)pp 99-100 .

١٤- د. سيد توفيق و د. سيد احمد الناصري : تاريخ مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٥٣ - ٣٤، سنة ١٩٨١م.

١٥- د. احمد بدوي، د. محمد صبر عطاف، هيرودوت في مصر، المرجع السابق، ص ١٧٨.

16. Hor-Apollon: Hieroglyphica, Book I, Chapter 34-35.

17. Ibidem, Book II, Chapter 47 = A.S. Cory The hieroglyphes of Nilous, London 1840.

18. Loeb edition of Hesiod, P 74, Fragment No. 163.

19. Ovid, Metamorphoses. XV (V, 392 - 407.

20. Amores, II, VI, 54.

21. Statius Silvanus, II, IV, 36.

22. Seneca, Epistulae, XI, II, I.

23. Book X, 3 - 5.

24. Annales, VI, 28.

25. Claudianus, De Consulatu Stilichoeis.

26. Aurelius Victor, De Caesaribus, 4.

27. H.J. Rose, A HandBook of Later Latin Literature Methuen. Company, 3rd edition, P. 1954., P 481.

28. A.M. Duff, Minor Latin Poets, Loeb Classical Library (1935) pp 647 ff.

29. Rose, op. cit. p 481.

30. Duff, op. cit pp 643, 647.

٣١- كتاب الحيوان للجاحظ، جزء ٧، ص ١٢٠، طبعة مصر.

٣٢- الجزء الثاني عشر (فصل العين حرف القاف) ص ١٤٩، مطبعة مصر.

٣٣- حياة الحيوان، جزء ٣، مطبعة مصر.

٣٤- المرجع السابق، جزء ٣٨ .

- ٣٥- سورة الفرقان ، آية ٣٨ .
- ٣٦- سورة قاف ، آية ١٢ .
- ٣٧- سورة النمل الآيات، ١٦ - ٢٠ .
- ٣٨- انظر شرح المقامات للشويعي، مطبعة بولاق، ١٩٠٠، جزء ٤٠٦، كذلك انظر دائرة المعارف الإسلامية تحت سيرغ.
- ٣٩- السابوري الثعلبي : فصوص الانبياء ، مكتبة الجمهورية المصرية، ص ٣٢٠.
- ٤٠- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب، الجزء الرابع عشر، دار الكتب المصرية، ١٩٤٣م، ص ٨٦ - ٨٧.
- ٤١- نهاية الأرب، جزء الرابع عشر، ص ٩٢.
- ٤٢- حياة الحيوان الكبرى، الجزء الثاني، ص ١٧٧ - ١٧٩.
- ٤٣- الجزء الثاني، ص ٢٧٩ تحت كلمة «عقلاء».
- ٤٤- ناجي القيسي - المرجع السابق، ص ٣١٧ - ٣١٨ .
- ٤٥- انظر : عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين العطار، القاهرة ١٩٤٥م، ناجي القيسي، المرجع السابق، نفس الصفحة.
- ٤٦- ناجي القيسي : المرجع السابق، ص ٣٠٢ - ٣٠٤.